نحن وسارتر

بقلم الدكتور سهيل ادريس

اولت « الاداب » و «دار الاداب » ، منذ نشأتهما ، الكاتب الفرنسي جان بول سارتر اهتماما كبيرا تجلى في ترجمة اهم مؤلفاته ، ونشر دراسات مستفيضة عنه ، والعناية بالحديث عن مواقفه المختلفة .

ولم يكن مصدر هذه العناية وذلك الاهتمام الا الايمان بان هذا المفكر الكبير هو اعظم المفكرين الاحرار في هذا القرن العشرين . وان دفاعه الصادق عن قضايا الحرية في العالم ، ولا سيما قضية استقلال الجزائر ، جدير به ان يفوز بكل حبنا واعجابنا . وانه لكسب لنا ، نحن العرب ، ان يتجند اكبر مفكر حر في عصرنا للدفاع عن قضيتنا في الجزائر ، كما انه كسب للبشرية كلها ان يضع سارتر كل عبقريته واخلاصه في خدمة الحرية ، والدفاع عن حقوق المضطهدين ، وفضح اساليب الاستعمار ، بشكليه القديم والجديد .

على ان ما يزيد اهمية سارتر في نظرنا ، هو ان مواقفه هذه صادرة عن نظام فلسفي متكامل استطاع ان يجعل منه واحدا من اكبر الفلاسفة المحدثين .

ولا ريب عندنا في ان اقبال القراء العرب على مطالعة اثار سارتر يترجم خير ترجمة عما وجدوا في مؤلفاته من زاد وغذاء ضروريين لهم في سعيهم لخلق حضارتهم الجديدة وتحقيق شخصيتهم المستقلة .

لقد كان الادب الوجودي الذي يمثله سارتر افضل تمثيل يعبر تعبيرا عميقا عما عاناه الجيل الفرنسي منذ كارثة الهزيمة الفرنسية في اثناء الحرب وبعدها . ولعل شيوع هذا الادب في وطننا العربي معزو الى ان الاجيال العربية الجديدة تجد فيه ما يشبه التعبير عما تعانيه منذ كارثة فلسطين . لقد كان من المفروض ان ينشأ لدينا بعد هذه الكارثة ادب يعكس اوضاعنا وهمومنا ويعبر عن اشواقنا لمحو هذه اللطخة من تاريخنا . ولكن اجيالنا الجديدة حين افتقدت هذا الادب ، الذي ربما كان بوسعنا ان نلتمس لعدم نشوئه بعض التبريرات ، راحت تبحث في الاداب الاجنبية عما يعبر عن قلقها وتمزقها وضياعها ، وآمالها كذلك ، فوجدت هذا كله في الادب الوجودي عامة ، وفي اثار سارتر خاصة .

ان جماع فلسفة سارتر يتجه الى ان الانسان ينبغي ان يكتسب جوهره بالحياة والعمل . فهو ليس شيئا اخر غير ما يكونه بنفسه ، وهو مطلق الحرية بان يصنع بنفسه ما يريد ان يكونه ، او بالاحرى ما « ينزع » الى ان يكونه . وهذا تكون غاية هذه الفلسفة ، بكلمة مختصرة قد تؤدي الى تشويه غناها الحقيقي ، خلق الانسان خلقا جديدا يقوم على الحرية والمسؤولية .

وليس من شك في ان حاجتنا القصوى ، نحن العرب ، في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخنا ، هي ان نكتسب الحرية ، وان نضطلع بالمسؤولية .

وهاتان الفكرتان ، الحرية والمسؤولية ، هما قطبا الفلسفة السارترية كلها . وقد اصيبت هذه الفلسفة بتحريف وتشويه عندما اختطفها جيل من الضائعين في فرنسا اثناء الحرب وبعدها ليجعلوا منها مرتكزهم السلوكي ، فاذا هم يقتطعون من قطبيها القطب الاول الذي هو الحرية ليمارسوها وفق امزجتهم واهوائهم ، ويسقطون المسؤولية التي هي الضابط والرقيب لكل حرية انسانية .

وليس في الفلسفات القديمة والحديثة فلسفة كالوجودية تحفظ للانسان ـ كفرد ـ كل قيمته ، لانها تربط هذه القيمة بالعمل الانساني ، والعمل الانساني وحده ، ولا تلقي المسؤولية الا على هذا العمل ، بحيث يكون الفرد هو خالق نفسه اولا واخيرا ، فمنه تنبع كل قيمة ، وفيه تصب .

واذا كان الانسان ، عند سارتر ، بلا جذر ، فلانه هو جذر نفسه ، واذا لم يكن ثمة في الخارج ما يكسبه قيمة ، فلانه هو قيمة نفسه ، ولئن كان مترديا ، فلانه حر . ان حركاته لا يمليها عليه لا نظام الهي ، ولا نظام عقلاني يجده في ذاته او في الاشياء ، ورد فعله الاول هو دوار قلق امام هوة حريته : ولكن من هذه الحرية يولد معنى حياته . الحرية . تلك هي الكلمة العظيمة الخصبة التي تتيح لنا ان نواجه الحياة .

وليس من قصد هذه الكلمة ان تستعرض فلسفة سارتر ، ولكن يهمنا هنا ان نرد التهمة الخاطئة التي يحلو للبعض ، ولا سيما عندنا ، ان يلصقوها بهذه الفلسفة حين يدعون انها لا اخلاقية . والواقع ان هؤلاء انما يعتبرون الاخلاق قيما قبلية قائمة وناجزة ، ويقيسون بها كل المواقف . اما سارتر ، فان « اخلاقيته » تريد ان تكون خلقا دائما ، ما دام العالم لا ينى يكشف عن اوضاع جديدة . ليست هناك « حكمة » قائمة ينبغي العودة اليها والحرص عليها ، كما انه ليست هناك قيم عالمية . والحق ان سارتر انما يهاجم هذا « العالمي » ، لانه يؤمن بان ليس ثمة « جوهر » متجمد علينا ان نحترمه ، وانما هناك « وجود » جديد دائما علينا ان نبرره ابدا وبلا انقطاع . ان سارتر هو كاتب عصر ينفصل عن فكرة التقاليد ، ليجعل من الحضارة تجددا ، لا حفاظا للقوانين ومراعاة ، ومن الحياة مغامرة لا نظاما قائما . وهو يريد للعمل الاخلاقي ان يكون اختيارا لا مجرد طاعة .

ويهمنا هنا كذلك ان ننبه قارىء سارتر الى ان عليه

ان يأخذ آثاره ومؤلفاته كوحدة لا تنفصم عراها اذا شـ
ان يفهم فلسفته واتجاهه . اما اذا جزأها ، ووقف عن
هذه الاجزاء المتناثرة ، فسيجد فيها كثيرا من المظاهـ
السلبية التي قد تحمله على الاعتقاد بان سارتر عدمي ا
تشاؤمي . والحق ان آثار الكاتب الوجودي تبدو اشبه
بسلسلة تكمل حلقاتها بعضها بعضا . فاهميتها صـادرة
عن انها تعرض علينا رؤية للعالم والانسان تجمع وتنظـم
معطيات الضمير المعاصر المتفرقة ، وهي تريد ان تكـون
توكيدا لموقف : فضح العالـم فـي لوحه لا هوادة فيهـا
لما هو الانسان . ولكن غاية سارتر تتجاوز ذلك : فهـو لا
يواجهنا بجميع الاسباب التي تدعونا الى اليأس الا لنعرف
اذا كنا سنجد فيما وراء ذلك تبريرا للحياة . ان كل بطـل
سارتري يعيش تجربة حريته ، وليس الابطال السارتريون
كائنات تجريدية تعوم في الفضاء ، ولكنهم جميعا متموضعون
في واقع دقيق ، تاريخي واجتماعي ونفسي وفكري .غير
ان التوضع ليس تحديداً ، وانما هو مجال الاختيار الحر .
صحيح ان الانسان يشعر بـ « الغثيان » امام الواقع الذي
لا شكل له ، الواقع اللامعقول ، العبثي ، الذي يعمر انطوان
روكانتان . ولكن في الصفحات الاخيرة من رواية «الغثيان»
موسيقى اسطوانة يشرق منها امل في التحرر . ان اللحن
لا يوجد كالاشياء او كالانسان ، وانما هو دقة وضرورة ،
افلا يمكن لنا ان نكون على شاكلته : لا ان نوجد ، بـل ان
« نكون » بان نخلق اشياء تكون فوق الوجود وتفلت مـن
عبثيته وعرضيته : كالكتب واللوحات ؟ اجل ، يكفي تجاوز
« الغثيان » وتثبيت العرضية ورؤية ما تقتضيه ، حتـى
تكتشف « دروب الحرية » . وصحيح اننا حين نقرأ «سن
الرشد» و « وقف التنفيذ » نغرق في عالم مختلـط ،
اعتباطي ، يحمل الاشمئزاز واليأس ، وتنبعث منه رائحـة
مغثية خانقة . ولئن كنا نجد صفحات كثيرة من الوصـف
الجنسي والبذاءة ، فلن نعتقد لحظة ان سارتر يقدمهـا
للاثارة والامتاع ، وانما هي في نظره صورة الوجـود ،
الوجود الاولى المعطى غير المتميز ، والذي لا بد ان يتغير
ويتحول ويعوض عنه . والحرية هي العامل الرئيسـي
الجوهر الذي يصنع الواقع البشري . ان الجوهر يصنـع
ويكتسب بالعمل ، بالالتزام الحر .

اننا في « دروب الحرية » نجدنا امام ابطال بعيدين
عن ان ينظموا اعمالهم وتصرفاتهم وفق خط مصمم مختار ،
بل هم يتناثرون في اعمال مجانية او تصرفات لا تفسر .
تنكر التصميم والتقرير ، وتناقض البساطة ، اعمال لامعقولة
او عابثة او كريهة : كان يزرع احد الابطال سكينا في يده ،
او يشمل ، او يسرق مالا من امراة ، او كتابا من واجهـة
مكتبة . ولكن يجب ان ندرك ان هذه الاعمال انما هـي
توكيدات سيئة للحرية او للشجاعة . انها حرية سلبيـة
لدى ماتيو . غير اننا نراه في الجزء الثالث وفي الفصول
التي نشرت من الجزء الرابع يسير نحو حرية ايجابية اذ
يحس انه مسؤول ومتضامن مع جميع الاخرين . لقـد
اكتشف ان الحرية لا قيمة لها الا بما تستعمل له ، وانهـا
تتطلب التزاما ومسؤولية ، كما تتطلب عملا دقيقا واضحا
في وضع معين ، في حين انها لم تكن تبدو له في « سـن
الرشد » الا كفرصة للتحرر . انه يسعى الى ادراك الواقع
المحسوس حيث يعمل الانسان ، هذا الواقع الذي كـان
يتحاشاه دائما . لقد اراد ان يؤكد نفسه بعد ان غرق في
الوحشة والخجل اثناء الهزيمة ، وادرك ان خاصة الوضع
الانساني هي ان يدخل تغييرات وتبديلات على معنى العالم ،
هي ان يعمل . ومن اعلى البرج ، اخذ يطلق رصاص بندقيته
ضد مدافع الجيش الالماني ومصفحاته ، وبهذا كان ينكـر
جميع التحفظات الناعمة في حياته ، ويؤكد ان علـى من
اراد الحياة حقا ان يجازف . وقد كانت حرية مزيفـة
تلك التي كانت تقوم في « سن الرشد » على تأمل العالـم
من غير الانخراط فيه . وانما تتخذ الحرية معناها الصحيح
لماتيو في العمل .

وهكذا اورست في مسرحية « الذباب » . لقـد
استطاع ان يقول وهو في وضع مشابه : « لقد قمـت
« بعملي » يا الكتر ... وسأحمله على كتفي كما يحمـل
عابر الماء المسافرين ، فاوصله الى الشاطىء الاخر واكـون
مسؤولا عنه . وستزداد فرحتي ما ازداد ثقلا على الحمل ،
لان حريتي هي اياه . حتى الامس ، كنت اضرب فـي
الارض على غير هدى ، وكانت الوف الطرق تفر تحـت
قدمي ، لانها كانت تخص اخرين ... اما اليوم ، فليـس
هناك الا طريق واحد ، والله يعلم الى اين يفضي : ولكنـه
« طريقي » (١) .

واذا استعرضنا سائر مؤلفات سارتر ، الدراسيـة
والقصصية والمسرحية ، من « الوجود والعدم » حتى « نقد
العقل الديالكتي » مرورا بـ « جلسة سرية » و « موتـى
بلا قبور » و « البغي الفاضلة » و « الشيطان والرحمن »
و « اسرى التونا » وسواها ، ظللنا امام الهم نفسه : هـم
الانسان الذي يبحث عن حريته عبر التزامه ومسؤوليته .

فاذا كنا قد اقبلنا على قراءة سارتر وترجمتـه
ودراسته ، فلاننا كنا وما نزال نجد في اثاره دروسـا
نتعلمها في الحرية والعمل والخلق ، ولاننا وجدنا هـذه
الدروس في قالب فني ممتاز بعيد عـن الدعاية والتقريرية
والوعظ ، ولان فيها تعبيرا عما نعانيه من الوان القلـق
والتمزق واليأس احيانا ، ولكن فيها كذلك املا بالنجـاة
والتحرر بالعمل والاضطلاع بالمسؤولية .

ثم اننا كنا وما نزال نجد تجسيدا لهذه الفلسفـة
في المواقف الرائعة التي وقفها صاحبها من قضايا الحرية
في العالم . اننا لا نستطيع ان ننسى مقالاته وخطبـه
وبياناته في الدفاع عن حق الشعب الجزائري بالاستقلال ،
ولا ننسى انه سار في عدة مظاهرات تأييدا لهذا الحـق

---

(١) لمزيد من التوضيح والاستشهاد ، يراجع كتاب « سارتـر والوجودية » لالبيريس .

واستنكارا لسياسة الارهاب الفاشية التي كان يتبعها المسؤولون الفرنسيون في الجزائر وفي فرنسا . ونحن نذكر ابدا تحريضه الجنود الفرنسيين على التمرد والعصيان وعدم الذهاب الى الجزائر ، حتى لقد اتهم بخيانة فرنسا. ونذكر بيان المئة والواحد والعشرين مفكرا فرنسيا الذي اشرف على وضعه ، وحرمانه من كل نشاط رسمي، ونسف بيته في باريس ، ومحاولات الاغتيال المتعددة التي تعرض لها من قبل منظمة الجيش السرية ، هو وشريكته سيمون دو بوفوار .

ونحن نذكر موقفه المشرف الصادق من حوادث المجر ، يوم استنكر تدخل القوات السوفياتية ، هو الذي كان وما يزال من اكبر المتعاطفين مع الفكر الماركسي والشيوعي ، وكذلك موقفه من التمييز العنصري في اميركا، وتأييده للثورة الكوبية ضد الاستعمار الاقتصادي الاميركي، كما عبر عن ذلك في « عاصفة على السكر » . وقد صدر له اخيرا كتاب خطير جمع فيه عددا من المقالات والخطب والمقدمات التي كتبها دفاعا عن حقوق الشعوب المضطهدة، وفيها دراسة من اعمق الدراسات التحليلية عن سياسة لومومبا والاستعمار الجديد .

***

ولا شك في ان منح سارتر جائزة نوبل قد جاء متأخرا جدا عن اوانه . ولكننا نعتقد ان سارتر كان سيرفض هذه الجائزة ايضا لو منحها في اوانها ، لان ذلك وثيق الارتباط بمواقفه كلها ، تلك المواقف التي اراد فيها دائما ان يثبت حريته وايمانه بالكرامة وزهده بالاغراء المادي .

و « الاداب » التي بدأت منذ عددها الاول ، الذي صدر قبل اثني عشر عاما ، تتحدث عن سارتر ، ترى من حقها ، ومن واجبها كذلك ، ان تخصه بصفحات اخرى في هذا العدد ، وتبعث اليه بتحية اكبار وتقدير .

الآداب (ديسمبر) ١٩٦٤

***

رسالة إلى سارتر

كانت احدى الصحف الاسرائيلية قد ذكرت منذ اسابيع ان دعوة قد وجهت الى الكاتب الفرنسي جان بول سارتر لحضور « مؤتمر الفلاسفة » الذي سيعقد في ٤ نيسان (ابريل) الحالي في اسرائيل . وقد صرح احد الفلاسفة الاسرائيليين ان « من المنتظر ان يلبي سارتر الدعوة » .

وقد بادر رئيس تحرير « الاداب » بعد قراءة هذا النبأ ، الى ارسال رسالة الى سارتر نورد فيما يلي ترجمتها العربية .

« الاداب »

***

سيدي العزيز

يسعدني ان ارفق لك بهذه الرسالة نسخة من عدد « الاداب » الصادر منذ حين . وقد خصصت الصفحات الاولى من هذا العدد الذي يحمل غلافه صورتكم مع عبارة « تحية الى سارتر » ، للحديث عنكم بمناسبة رفضكم لجائزة نوبل .

والحق ان هذه ليست هي المرة الاولى التي تتحدث فيها مجلتنا عنكم باحترام واعجاب . فالقراء العرب الذين يقبلون عليها يعرفونكم منذ وقت طويل ، سواء عبر هذه المجلة الملتزمة على غرار مجلتكم « ليتان مودرن » ، او عبر مؤلفاتكم المترجمة الى العربية والتي كان لي حظ ترجمة عبر قليل منها . وقد اصدرت دارنا بالعربية كتابيكم الاخيرين « الكلمات » ـ «سيرتي الذاتية» ـ و «الاستعمار الجديد » اللذين ترجمتهما ، وكان الثاني بالاشتراك مع زوجتي سكرتيرة تحرير « الاداب » .

واسمح لنفسي بالقول ان « دار الاداب » التي انا صاحبها كذلك ، قد اخذت على عاتقها تعريف القراء العرب بمؤلفاتكم الحرة اعمق الحرية وهي تنوي ان تنشر قريبا بالعربية ، بالاتفاق مع دار « غاليمار » ، عددا اخر من مؤلفاتكم ومؤلفات سيمون دوبوفوار (وقد ترجمت زوجتي لها « قوة الاشياء » الذي صدر اخيرا) .

وغني عن القول ان اصل العلاقة التي تشد القاريء العربي الى آثاركم ، انما هو احترام عميق لفكركم الحر ، وشخصيتكم ، ومواقفكم من قضية العرب في الجزائر ، ومساندتكم لجميع القضايا الكبيرة العادلة ، ومنها قضايا كوبا والكونغو . ان جميع البلدان التي خضعت ولا تزال تخضع لنير الاستعمار والاستعمار الجديد تجد في كتاباتكم الادبية والفلسفية اصداء لامانيها القومية المشروعة .

وقد كان بودي ان انقل لكم الى الفرنسية اهم ما في المقالات الصادرة في هذا العدد الخاص من « الاداب » ، ولكن ليست هذه غايتي . انني اسمح لنفسي بان انقل لكم هنا مقطعا صغيرا من المقال الافتتاحي الذي كتبته بعنوان : « نحن وسارتر » :

« لقد كان الادب الوجودي الذي يمثله سارتر افضل تمثيل يعبر تعبيرا غميقا عما عاناه الجيل الفرنسي منذ كارثة الهزيمة الفرنسية في اثناء الحرب وبعدها . ولعل شيوع هذا الادب في وطننا العربي معزو الى ان الاجيال العربية الجديدة تجد فيه ما يشبه التعبير عما تعانيه منذ كارثة فلسطين . لقد كان من المفروض ان ينشأ لدينا بعد هذه الكارثة ادب يعكس اوضاعنا وهمومنا ويعبر عن اشواقنا لمحو هذه اللطخة من تاريخنا ، ولكن اجيالنا الجديدة حين افتقدت هذا الادب الذي كان بوسعنا ان نلتمس لعدم نشوئه بعض التبريرات راحت تبحث في الآداب الاجنبية عما يعبر عن قلقها وتمزقها وضياعها ،